(ماكس إرنست .. فنان نصفه عصفور)

(١٨٩٣ - ١٩٨٣)

Max Ernst

في عمر الحياة
كل شئ ملقى في كل مكان
كل شئ كان يبدو مبعثراً
زجاجة من الشراب المنعش
وباقة من البنفسج
منها يوجد كل شئ من كل نوع
من الحصى غير الجارحة ،
بحيرة مليئة بالحقائق
والجبهة الملتصقة بالجدار تتابع السحب
ليس في هذه اللحظة أن مات كل أمل
منذ زمن بعيد ، بعيد
والعيون المنطفأة بالنهار الساطع
تلمع في المساء .

قال عن نفسه : " التصوير بالنسبة لي ليس زخرفة أو تعبيرا تشكيليا عن الواقع المحسوس ، لكنه – في كل لحظة – إبداع واكتشاف وإحياء .. ومع هذا فقد أردت – ببساطة – أن ألهو .. " .

وقال عنه الشاعر " هنري ميشو " : " الصدفة هي قاموس آرنست التشكيلي فيما عدا العصفور والغابة .. فهما ماثلان – دائما – في كل أعماله .. لقد كشف لنا آرنست أوراق اللعبة السيريالية خاصة ، والتشكيلية بوجه عام .. ".

فمن هو آرنست هذا الذي كشف أوراق اللعبة السيريالية ؟

إنه الفنان التشكيلي " ماكس آرنست " المولود بمدينة " براهل الألمانية " في الثاني من إبريل من عام ١٨٩١ .. أي بعد مولد العظيم " بيكاسو " بحوالي عشر سنوات .

كان والده هاويا للرسم .. بينما كان عمله الأساسي مديرا لملجأ الصمّ والبكم أما إخوته فكانوا سبعة من بينهم خمس بنات .. أعدم النازي إحداهن وتدعى " لويس " .

في عام ١٩٠٩ التحق " ماكس " بجامعة " بون " لدراسة الفلسفة وعلم النفس وكان قبلها قد قرأ للمشاهير : " جول فرن " و " هوفمان " و " لويس كارول " و " فرويد " ..

بعد التحاقه بالجامعة انضم لجماعة تطلق على نفسها " الفارس الأزرق " للتصوير .. وكان يقودها " كاندنسكي " ويتردد عليها الشاعر " أبوللينير " وفي عام ١٩١٣ تعرف إلى " هانز آرب " الذي دعاه لقراءة أشعار " رامبو " وتشجيعا له عرض لوحاته جنبا إلى جنب لوحـــات " فان جوخ " و "سيزان" و" بيكاسو " في معرض " كولوني " بألمانيا .

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى – في عام ١٩١٨ – جند "ماكس" بالقوات الانتحارية الألمانية .. وفي العام نفسه تزوج من إحدى بنات وطنه وتدعى " لوشتراوس " .. بعدها بعامين أتيحت له الفرصة لعرض لوحاته الدادية من الكولاج لأول مرة .. وفي العام نفسه – أيضا – نقل معروضاته إلى " باريس " بدعوة من " بريتون " الذي بهر بأعماله واقتنى بعضها وأقنعه بالحياة في العاصمة الفرنسية .

في أغسطس من عام ١٩٢٢ .. دخل " ماكس " إلى مدينة الفنون والأضواء بجواز سفر الشاعر الفرنسي " بول إيلوار " .. ولم يلبث كثيرا حتى اشترك في معرض " الطليعيين الأوربيين " .. لكنه ظل يعاني شظف العيش في السنوات الأولى لاغترابه في فرنسا .. إلى أن ظهر " مانيفستو السيريالية " في عام ١٩٢٤ وعثر فيه على ضالته المنشودة .. وبدأ يضع يده على أفكاره ورؤاه .. وساعتها – فقط – أدرك السر وراء اهتمام " بريتون " به وبأعماله . وحصل على الجنسية الفرنسية عام ١٩٥٨ ولا ندري هل احتفظ بجنسيته الألمانية أم تنازل عنها ، حتى رحل في عام ١٩٧٦ ؟! .

تميزت أعمال " ماكس آرنست " بالبساطة والتكنيك .. وهاتان السمتان دفعتاه إلى اكتشافات رائعة مـــن خلال الخطوط السريعة التي كانت تجرى بها أصابعه بالقلم قبل الفرشاه ..

كشف عن ذلك العالم البعيد والمعاصر في الوقت ذاته .. الواقعي والخيالي معا .. وأصبح الشئ عنده هو الأساس .. لكنه الشئ المحاط بالطبيعة .

من هنا .. ظهرت رسوماته المسماه " تاريخ طبيعي " والتي انشغل بها عالم الفن التشكيلـــي على مدى عام كامل : عام ١٩٢٦ .. ومن أشهر

لوحات هذه المرحلة : أسبوع الصداقة ، وهما لوحتان .. الأولى تمثل عينا مفتوحة مكررة على الجانبين .. والثانية يدين متصافحتين مكررتين على جانب واحد.. واللوحتان مرسومتان بالقلـم الرصاص الذي يشكل درجات لونيّة تبدأ بالرمادي وتنتهي بالأسود الفاحم .

وقد أوحت رسومات " التاريخ الطبيعي " بما يسمى باللامعقول أو العبث في أعمال " ماكس " قبل أن يعرف الأدب هذه المرحلة .. بل إن هذه الرسومات ذاتها تحولت – بعد ذلك – إلى لوحات تحمل مكونات الطبيعة وما وراء الطبيعة .

ومن أشهر أعماله في هذا المجال .. لوحتا : " أوديب ملكا " و" الفيل " وقد أعجب بهما الشاعر " بول إيلوار " فاشتراهما على الفور .

وكما برع " ماكس " في استخدام القلم الرصاص .. برع كذلك في استخدام الألوان .. خاصة الساخنة ، فلوحة "القبعة هي التي تصنع الإنسان" والتي انتهى منها في عام ١٩٢٠ على طريقة " الكولاج " – أو القص واللصق – تتخذ شكل " الدادية " لما فيها من سخرية في ترتيب الأشياء .

و " الكولاج " عند " آرنست " هو اللعبة الفنية المفضلة .. وهي التي جعلت منه واحدا من أهم الفنانين الطليعيين على امتداد العصر ..

وهو ما يظهر واضحا في إحدى لوحاته التي أطلق عليها "فتاة صغيرة" وقد انتهى منهـا في عام ١٩٣٠ .. ويعبر فيها " ماكس " عن نفسه من خلال صورة إنسان نصفه عصفور .. مشيرا بذلك إلى الإنسان وضميره .

وبمناسبة ذكر الضمير الإنساني .. فإننا نلاحظ تأثر " ماكس " بالتحليل النفسي الذي يغوص في أعماقه .. وذلك من خلال لوحته الشهيرة " عين الصمت " التي رسمها في عام ١٩٤٣ .

عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٦ .. وجد "ماكـــس" نفسه في موقف حرج أمام مخابرات وقوات النازي .. فقرر الهجـــرة إلى أمريكا عن طريق " مارسيليا " بمساعدة " بيجي جاجنهايم " التي كان قد تزوجهـــا.. لكنه بعد ستة شهور – فقط – انفصل عنها ليستقر به المقام في ولاية " أريزونا " بالقرب من " دوروثيه نانتج " وهي سيدة أمريكية كانت تعشق الفن حتى النخاع .

وفي عام ١٩٤٩ عاد " ماكس " إلى " باريس " مدينة الفن والجمال .. أو المنفى الاختياري كما يحب أن يطلق عليها .. وخلال خمس سنوات استطاع أن ينتهي مـــن ستين لوحة ، أقام لها معرضا في عام ١٩٥٤ فاز فيه بجائزة " بينالي " فينسيا الكبرى ..

وبالرغم من هذه المكانة التي وصل إليها " ماكس " وظل متربعا عليها.. إلا أنه كان – فقط – محل تقدير من نقاد الفن ورواده ومشجعيه .. دون أن يحظى بتقدير تجاري – أو مادي – يساعده على مواصلة الحياة بصورة كريمة !

أما إذا تناولنا " ماكس آرنست " المصور .. فنجد أنه – كما يقول المهتمون بدراسته – تأثر بنزهاته في الغابات على امتداد سنى طفولته وصباه .. كذلك تأثر بقراءاته المتنوعة .. خاصة الخيالية منها وما يتسم بالطابع الأسطوري ..

من هذا التأثير تولدت لديه خطوط السيريالية دون أن يدري عن النظرية شيئـــا .. ولعل هذا – أيضا – ما لمسه " بريتون " في خطوط " ماكس " وهو يفكر في السيريالية .. ويعترف " بريتون " نفسه بأنه لم يخترع السيريالية ، لكنه اكتشفها من خلال أعمال الفنانين الذين يأتي في مقدمتهم "ماكس آرنست" .

ومع هذا .. لم تكن السيريالية بداية الطريق بالنسبة لماكس .. وإنما كانت نهايته ..

أما البداية فتمثلت في " الدادية " التي برع فيها " جيورجيودي كيريكو " ومارسها بفهم ووعي ودراسة " ماكس آرنست " .. على الرغم من أن الدادية ولدت في " زيوريخ " وليس في " روما " .

والمؤكد – تاريخيا – أن الدادية والسيريالية لم تظهرا بالصدفة .. وإنما ظهرنا نتيجة لتفاعل الحركات الفكرية مع الحركات الفنية .. فيما بين الحربين العالميتين .. ولم يكن غريبا أن يسير " ماكس " في كلا الاتجاهين : الفكري والفني ، وهو المواطن الألماني الذي عانى وحشية النـــازي أكثر من غيره وقبلهم .

ويعترف " ماكس " بفضل " كيريكو " عليه – بالنسبة للدادية – وبفضل " هانز أرب " فيما يتعلق بالرسم بالشمع ، على طريقة تلاميذ المدارس .. فالدادية والشمع يشكلان روح الطفولة وحيويتها وهما – معا – يمثلان أسلوب " ماكس " الطفل الكبير والفنان الأكبر .

ومن خلال المزيج الرائع الذي صاغه " ماكس آرنست " من الفن –متمثـــلا في الألوان الواضحة– والفكر– متمثلا في إرادة الوجود– يصل

بنا إلى قمة المنهج الفلسفي الذي اختطه طريقا واضحا بسهولة ويسر في لوحته الشهيرة " أوكليد " التي رسمها في عام ١٩٤٣ .. وهي اللوحة التي تمثله خير تمثيل وتعبر عنه أبلغ تعبير .

أما أجمل لوحات " ماكس آرنست " على الإطلاق .. فهي لوحة " أم وطفل في حديقة مشمسة " وقد رسمها في عام ١٩٥٣ متخففا فيها من حدة الألوان .. وقد كانت هذه اللوحة من أبرز ما لفت أنظار الفنانين والنقاد في معرض " ما وراء التصوير " الذي أقيم في عام ١٩٦٦ .. فالأشكال فيها بسيطة للغاية ، والألوان هادئة متناغمة بلا حدة أو نفور أو تعارض أو حتى تقابل .. والفكرة – في الوقت نفسه – واضحة معبرة .

ومن اللوحات التي تبين تأثر " ماكس آرنست " بالأدب – خاصة "ألفريد جاري" الذي كشف له " باريس " من الوهلة الأولى ، على حد تعبيره، لوحة بعنوان " أرسو الأب والابن " .. وهي مستوحاة من رواية " جاري " الشهيرة " أوبو الأب " .. ويعبر فيها " ماكس " عن أسلوبه السيريالي وهو في أوج مراحله .. وقد رسمها في عام ١٩٦٦ وكانت إحدى لوحات معرض " ما وراء التصوير " .

وما دمنا بصدد ذكر السيريالية لدى " آرنست " فلابد أن نذكر لوحته الشهيرة " طفلان يطاردهما الكروان " التي رسمها في عام ١٩٤٤ ، فور إعلان " مانيفستو " السيريالية مباشرة .

وكما أن " آرنست " تأثر بالأدب في أعماله .. فقد تأثر – أيضا – .. بالحرب .. وكانت أبرز لوحاته في هذا المضمار ، لوحة " أوروبا بعد المطر " التي رسمها خلال عامي ١٩٤٠ – ١٩٤١ .. ويعبر فيها عن ويلات الحرب ودمارها .. حيث يظهر اضطراب الأشكال والألوان والخطوط

والمساحات الفارغة والمكدسة .. وكذلك الاختلاط بين الأشياء والبشر ، والمأساة المجسدة بين النور والظلام ، فوق الوجوه وداخل النفوس .

هذا هو " ماكس آرنست " أحد عمالقة الرسم التصويري في جيل العمالقة على جميع المستويات الفنية والفكرية والأدبية .. حيث كان الفرد يؤثر في المجموع .. والجماعة تؤثر في الفرد .. وحيث كان الفنان أديبا ومفكرا في وقت واحد.. كما كان الأديب فنانا ومفكرا ، والمفكر فنانا وأديبا.

هذا هو " ماكس آرنست " الذي وصفه الشاعر " بول إيلوار " بأنه فنان وكاتب وشاعر رفيع المستوى ، وفيلسوف ينظر إلى الحياة من خلال الحكمة لكي يحطم مآسي الواقع .. فهو لا ينغلق على نفسه داخل أطر محددة لكنه يتحرك - بحرية كاملة - عبر الأوطان .. فلا وطن واحد له .. وعبر اللغات.. فهو يجيد أكثر من لغة .. وعبر النساء .. فليس له زوجة واحدة .. وعبر الأساليب .. فهو يتبع بأكثر من أسلوب ، ولا يكف عن الاكتشاف والابتكار حتى في عناوين لوحاته .

هذا هو " ماكس آرنست " الذي قال عنه الشاعر " رونيه شار " : كانت السيرياليـــة - وهي في مهدها - في حاجة إلى ماكس الذي قرأ هيجل وأدرك حاجة بريتون إلى من يطبق نظريته على المستوى الفني ، فقدم لوحته " المرأة مائة رأس " و" الثورة الليل " نموذجا يكمل رؤية لوتربيامون ودوكاس على المستوى الأدبي .. وبفضل آرنست لم تمت السيريالية منتحرة، كغيرها من التيارات الفنية ، ولم تستمر في طريق مظلم ، ولكنها أدت دورها كاملا ورحلت بكل الحب والإعجاب والتقدير .. " .